فى المصيف

للكاتب الروسى أنطون تشيخوف

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

« أحبك فأنت حياتى وسعادتى ، وأنت لى كل شىء فى الوجود ! ولتغفر لى هذا الاعتراف فما أنا بقادرة على أن أحمل الألم ولا أشكو ، وما أسألك أن تبادلنى حبا بحب ولكنى أسألك العطف على والرأفة بى . فلتلاقنى فى تعريشة المتنزه فى تمام الساعة الثامنة من مساء اليوم ... وما أحسب بى من حاجة لأن أوقع خطابى هذا باسمى وإنى لأرجو ألا يزعجك أن أبقى مجهولة منك ، فحسبك أن تعلم إنى صبية مليحة المنظر ... وما عساك تطلب وراء ذلك ! »

هذا هو الخطاب الذى تلقاه ، ساعة الأصيل ، « بافل ايفانتش » وهو رجل متزوج يقضى عطلة الصيف فى بيت من بيوت المصايف ، فلما قرأه هز كتفيه ودعك جبهته ، وقد استولت عليه الحيرة ، وقال يخاطب نفسه :

« ياله من عمل من أعمال الشيطان . أنا رجل متزوج ، فما لهذه المرأة تبعث لي بمثل هذا الخطاب العجيب . السخيف ! ومن ترى تكون كاتبته ؟! »

وقلب بافل إيفانتش الخطاب أمام عينيه غير مرة وكرر قراءته مرة وثانية ثم تفل احتقارا وقال متهكما :

« إنى أحبك ! حقا لقد وقعت على شاب ظريف جميل أيتها الحسناء ؟ إذاً سأسرع إلى لقائك فى تعريشة المتنزه

لقد نعمت ، يابنيتى ، منذ أعوام طوال ، بأمثال هذه الخيالات ، وملأت مماطسى بما كانت تبعث به أزهار الغرام فى الجو من عطر زكى .. يالله ! إنى ما أشك فى أن كاتبة هذا الخطاب امرأة خليعة لا تقيم للفضيلة وزنا . رب ! إن لهؤلاء النسوة لأديما لا يحس الحياء . إنهن شبيهات باللعب التى تعرض فى الأسواق ليتلهى بها الأطفال فليغفر لنا الله!

إن المرأة التى تكتب مثل هذا الخطاب لرجل متزوج وأجنبى عنها لا يمكن أن تكون إلا امرأة هوائية مستهترة لا تحفل بالآداب . . الحق أن هذا هو غاية ما يصل إليه الانحلال فى الأخلاق ! »

وكان بافل إيفانتش قد تغلب فى السنوات الثمان من حياته الزوجية ، تغلباً تاماً على العواطف الغرامية ولم يتلق فى خلال هذه المدة أى خطاب من أية امرأة إلا أن يكون خطاب تهنئة . لهذا كان الخطاب الذى تلقاه أصيل ذلك اليوم منشأ اضطراب استولى على نفسه وحيرة أحاطت به من جميع النواحى على الرغم من محاولته الزراية بهذا الخطاب وبالمرأة التى بعثت به

ولم تمض على الرجل ساعة من تسلمه هذا الخطاب حتى كان مستلقياً على أحد المقاعد مفكراً يحدث نفسه فيقول :

« ما من شك فى أننى لست بالصبى الأبله الذى يندفع إلى المكان الذى عينته هذه المرأة للقاء ... ولكنى أرى من الشائق مع ذلك أن أعرف من هى هذه المرأة اللعوب ... تبارك الله ... إن الخط خط امرأة ما فى ذلك من ريب ... وإنى لأشعر أن الخطاب يعبر عن إحساس صادق ... لذلك يبعد أن

يكون خطاباً قد أريد به المزاح الخالص ... ويغلب أن تكون كاتبته إحدى هؤلاء الفتيات المصبيات اللواتى ... ولكن لعلها أرمل ... والأرامل على العموم مداعبات غريبات الأطوار ... يا لله ... ترى من تكون الكاتبة ؟ »

وكان مما صعّب الأمر فى نظر بافل ايفانتش أنه لا يعرف من بين زائرات المصيف غير امرأة واحدة هى امرأته ... فهمهم لنفسه :

« عجباً ... إن هذه المرأة تقول « إنى أحبك » فكيف أحبتنى ومتى وقعت فى شرك هذا الحب ؟! حقا إنها لامرأة مدهشة ! فما عهدنا الحب يقع على هذه الصورة ... ومن غير سبب ظاهر ... ومن غير تعارف سابق ، وقبل أن تعرف المحبة أى نوع من الرجال أحبت ... ما من شك فى أن كاتبة هذا الخطاب فتاة صغيرة ... خيالية ... ليس أدل على ذلك من وقوعها فى حبى أن بعد رأتنى اتفاقا مرتين أو ثلاث مرات فى الطريق ... ولكن ترى من تكون هذه الفتاة ؟!

وذكر بافل ايفانتش فجأة أنه إذ كان يسير خلال بيوت المصيف فى اليوم السابق واليوم الذى قبله التقى أكثر من مرة بفتاة حسناء على رأسها قبعة صفراوية اللون ، شامخة بأنفها إلى السماء ، وقد أطالت هذه الحسناء الرقيقة النظر إليه ، ولما جلس على أحد المقاعد العامة جلست إلى جانبه ... فسأل نفسه فى حيرة :

« أيمكن أن تكون هى ؟ ما أظن ذلك بممكن ! وهل من المعقول أن تحب فتاة هيفاء كهذه الفتاة كهلا مثلى متحطما ؟ كلا ! إن هذا لهو المستحيل بعينه ! »

وفى أثناء تناول العشاء الأول نظر بافل إيفانتش إلى امرأته نظرة تائهة ، وكان غارقاً فى بحر من التأمل والتفكير يحدث نفسه بقوله :

« .. إنها تقول فى كتابها إنها صغيرة حسناء .. إذن هى ليست عجوزاً ... عجباً ! الحق الذى لا مرية فيه أننى لست من الكبر والسذاجة بحيث لا يمكن أن تقع امرأة فى حبي ! فامرأتي تحبنى . ويجب أن نذكر إلى جانب ذلك أن الحب أعمى .. وليس فينا من يجهل ذلك ... »

وقطعت عليه زوجه سلسلة تفكيره بهذا السؤال :

— فيم تفكر ؟

فأجاب الرجل ولم يك صادقاً فيما قال :

— أنا لا أفكر فى شىء ... ولكننى أشكو صداعاً خفيفاً ...

واستقر رأيه آخر الأمر على أن من الغباوة والبله أن يفكر فى شىء لا معنى له ، كخطاب تحدثه فيه كاتبته عن الحب ... وعاد يهزأ فى نفسه ، من جديد بالخطاب وكاتبته

ولكن أسفاً ... إن للانسان من نفسه لعدواً قوي السلطان ! فقد رقد بافل إيفانتش بعد العشاء على سريره ، وبدل أن ينام انهمك مرة أخرى فى التفكير والتأمل فكان يحدث نفسه :

— ولكنى أستطيع أن أجزم بأنها الآن جالسة تحت التمريشة فى انتظارى . فيا لها من حماقة ! وإنى لأتصور إلى أى حد تثور أعصاب الفتاة وقد استولى عليها القلق من طول الانتظار ، كما أتصور كيف ضاق صدرها عندما دخلت التمريشة ولم تجدني فيها ومع ذلك فلن أذهب ... ولتأكل نفسها ؟

ولكننا نعود فنقول أن للانسان من نفسه لعدوا قوى السلطان . فلم تمض على الرجل نصف ساعة وهو راقد على فراشه حتى حدث نفسه من جديد :

« ومع ذلك فقد يحسن، من قبيل الاستطلاع، أن أذهب وأنظر من بعد أى نوع من المخلوقات هذه الفتاة ... وما تضرنى نظرة سريعة أتعرف منها شكل المرأة التى تجرؤ على كتابة مثل هـذا الخطاب ... وهل يكون ذلك أكثر من دعابة لا يبقى لها فى نفسى من أثر بعد أن تمر لحظتها ... لقد هيأت لى المصادفة فرصة للدعابة فلم لا أقتنصها ؟ »

وهب بافل إيفانتش عن سريره وشرع فى ارتداء ملابسه .

ولا حظت امرأته أنه أعد قميصاً نظيفاً ورباط رقبة أنيقاً فسألته :

« لم أراك تتأنق فى لباسك على هذا النمط ؟ »

فأجاب الرجل متململاً :

« أف ! ليس هناك مايدعو إلى العجب . . . وما هناك من شيء ، غير أن بى حاجة شديدة إلى التروض ... فرأسى مصدوع ... و ... أف ! . »

ارتدى بافل إيفانتش أحسن ملابسه فبدأ فى أجل هندامه ، وانتظر حتى وافت الساعة الثامنة وغادر البيت . فكان كلما التقى بأحد من زوار المصيف من رجال أو نساء أسرعت نبضات قلبه . وكان كلما رأى امرأة سأل نفسه متحيراً :

« ترى أيهن هى بين هؤلاء ؟ ولكن مالى أشعر بشيء من الخوف ؟ وعلام هذا الاضطراب ، وما أنا بذاهب إلى موعد ولقاء ! يالها من غباوة وحمق ! فلأتقدم فى ثبات ! ثم ماذا علىّ إذا أنا دخلت إلى التعريشة ؟ ولكن لا ، فليس هناك ما يستوجب الدخول »

ثم اشتد خفقان قلب بافل إيفانتش

. . . وتصور فجأة وعلى غير إرادة منه منظر التعريشة المظلمة . . وخيل إليه أنه يرى فيها فتاة رائعة المنظر على رأسها قبعة سماوية اللون وأنفها شامخ إلى السماء . . تصورها مستحيية لما ظهر من حبها . . وقد أصابتها الرجفة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها . . ثم رآها وقد تقدمت إليه على استحياء وهى مضطربة . . و . . على حين فجأة ضمته بين ذراعيها . .

وحدث نفسه — وهو يحاول أن يطرد من رأسه جميع الأفكار الآثمة :

« لو لم أكن متزوجاً لما كان ثمت من بأس . . على أنه أى ضرر فى أن أحاول مرة فى حياتى هذه المحاولة من باب الاختبار ؟ . . وإلا فأن الانسان يموت قبل أن يتعلم ما يجب . ثم أى شيء فى ذلك يضير امرأتى ؟ ألا فلتشكر لله فى خلال ثمانى سنوات عشتها معها لم أبتعد عنها خطوة واحدة ... ثمانى سنوات أؤدى واجب الزوج المخلص بما لا يدعو إلى لوم أو عتاب ! أما يكفى كل هذا الوقت الطويل فى مثل هذه الحياة المقيدة . . حقاً أن ذلك لما يضيق له الصدر . . وإنى لأشعر أنى لن أبالى بغضبها

ودنا بافل إيفانتش من التعريشة وقد استولت الرجفة على جميع أطرافه وأمسك بنفسه كالمتلصص ثم مد رأسه إلى الداخل فملأت رطوبة الجو خياشيمه وقال يحدث نفسه :

« أعتقد أن ليس هناك من أحد »

وتقدم بضع خطوات حتى صار داخل التعريشه

وهناك تبين شبح إنسان فى أحد الأركان

وكان شبح رجل ... وإذ دقق النظر عن قرب تبين أن هذا الانسان ليس أحداً غير الطالب ميتيا شقيق امرأته الذى يعيش معه في البيت

فدمدم ممتعضاً بعد أن جلس ونزع قبعته :

« أف ! هو أنت ؟ ! »

فأجابه ميتيا :

« نعم هو أنا ذا »

ومرت لحظة ساد فيها السكوت ثم قال ميتيا :

« عفواً يا بافل إيفانتش إذا رجوتك أن تتركنى وحدى ، فاننى أفكر فى الرسالة التى أتقدم بها للحصول على درجتى العلمية ... ووجود أى إنسان إلي جانبي يقطع على طريق التفكير »

فقال بافل إيفانتش فى شىء من التواضع :

« وقد يكون خيراً لك يا ميتيا أن تذهب إلى أى مكان آخر يتفق مع غرضك كزاوية في بعض الشوارع الكبيرة المظلمة ... فان الهواء الطلق مما يسهل عليك التفكير ... ثم لا أخفى عليك أننى أود ... نعم أود أن أنام فترة قصيرة هنا ... فوق هذا المقعد ... فالجو فى هذا المكان أقل حرارة منه في البيت ... »

فأجاب ميتيا متذمراً :

« الأمر بالنسبة إليك أمر نوم ... أما بالنسبة لى فأمر استذكار وتفكير فى الرسالة العلمية ... ومن البديهى أن يكون التفكير فى مثل هذا الموضوع خيراً من النوم ... »

وساد السكوت مرة أخرى ... وكان بافل إيفانتش قد أرخى العنان لخياله ، وخيل إليه أنه يسمع وقع أقدام فنفر من مكانه فجأة وقال فى صوت يتهدج غضباً :

« أرجو أن تصغى إلي يا ميتيا ! فأنت أصغر منى سناً وواجب عليك أن تحترمنى ... وأنا الليلة مريض ... وبى حاجة ماسة إلى النوم ... فلتنصرف من هنا ! »

فأجاب ميتيا :

« إنك لتدل بذلك على أنانيتك الشديدة . فلماذا تبيح لنفسك البقاء هنا وتطلب منى الانصراف .. إننى تمسكا بمبدأ الحق لن أغادر هذا المكان »

فقال إيفانتش محتدا :

« إصغ إلى إنى أطلب منك أن تنصرف ! فقل عنى إنى أنانى . مستبد أحمق . قل ماتشاء . ولكننى أطلب منك أن تغادر هذا المكان فى الحال . وهذه أول مرة فى حياتى أطلب منك فيها أن تسدى لى يدا بمعروف ! فهلا ظهرت بشىء من حسن التقدير والذوق ... »

فهز ميتيا رأسه وقال بافل إيفانتش فى نفسه :

« ياله من حيوان حقير . إن وجوده هنا تعسير على اللقاء ! نعم مستحيل على أن اجتمع بها فى حضرته ! »

ثم وجه إليه الخطاب قائلا :

« استمع ياميتيا إنى أطلب منك للمرة الأخيرة . فلتثبت أنك رجل ذو إحساس . مهذب . فى نفسك شىء من الانسانية ! »

فهز ميتيا كتفيه وقال :

« لا أعرف لماذا تلح على هذا الالحاح . لقد قلت لك إننى لن أغادر هذا المكان . وها أنا أكرر لك هذه القول .. نعم سأبقى هنا احتفاظا بمبدأ الحق والحرية ... »

فى هذه اللحظة أطل داخل التعريشة رأس

إمرأة شامخة الأنف إلى السماء ...

فلما رأت ميتيا وبافل إيفانتش حبست وجهها واختفت فى الظلام .

فقال بافل إيفانتش فى نفسه وهو يرمق ميتيا شزراً :

— لقد ذهبت ... نعم لقد رأت هذا الحيوان الدنئ فهربت ! لقد أفسد هذا المجرم كل شيء علىّ

وانتظر بافل إيفانتش فترة قصيرة ثم هم واقفاً فوضع قبعته على رأسه وقال :

— إنك وحش ... إنك حقير ... وجبان دنئ ! نعم لقد برهنت على وحشيتك ودناءتك ... أيها الأحمق ... والآن لتعلم أن كل شيء بيننا قد انتهى !

فوقف ميتيا أيضاً ولبس قبعته وقال :

— إنى لسعيد لسماع هذه الكلمات ... ولتعلم أنك بوجودك هنا فى هذا الوقت قد مثلت معى فصلاً قذراً لن أنساه لك ما حييت

وخرج بافل إيفانتش من التعريشة فعاد إلى بيته مسرعاً وهو ثائر غضب .. ولم يجد منظر المائدة المعدة لعشاء الليل فى التخفيف من غضبه

وفكر فى نفسه وهو ثائر مضطرب :

— مرة واحدة فى العمر تسنح لى مثل هذه الفرصة ... ثم تفلت منى فى اللحظة التى كدت أنتهزها فيها ... إنها الآن غاضبة مسحوقة القلب !

وفى أثناء تناول الطعام ثبت بافل إيفانتش وميتيا نظريهما فى أطباقهما وصمتا صمتاً كئيباً ... وقد طفح كل منهما ببغض صاحبه ...

ونظر بافل إيفانتش إلى امرأته نظرة التحفز وقال :

— علام تضحكين ؟ إن الحمق الأغبياء هم الذين يضحكون من غير سبب ؟

ونظرت المرأة إلى وجه زوجها الغاضب وانفجرت ضحكا وسألته :

— ما هذا الخطاب الذى جاءك اليوم ؟

وأخذ بافل ايفانتش بهذه المفاجأة فتولاه الاضطراب وقال :

— أنا ؟ أى خطاب تعنين ؟ أنا لم أتسلم خطابا ما ... وإنك لتخترعين ما تقولين ... وأراك تجرين وراء الخيال ...

قالت امرأته :

— ألا فلتكن صريحا ! فانى لواثقة من أنك قد تسلمت اليوم خطاباً ! ثم علام الانكار وأنا مرسلة الخطاب ! نعم أقسم لك بشرفى إننى أنا التى أرسلت لك هذا الخطاب ! ها ! ها !

فاحمر وجه بافل ايفانتش وأرخى نظره إلى صحنه وقال مهمهما :

— مزاح بارد !

فقالت زوجته :

— ولكن خبرنى بالله ماذا كنت أستطيع أن أعمل غير ذلك وكان علينا أن ننظف الغرف هذا المساء ... ولم تكن هناك من وسيلة أخرى لاخراجكما من المنزل !.. ولكن لا تغضب أيها البليد فلقد أردت ألا يتولاك السأم من الجلوس وحدك فى التعريشة ... لذلك أرسلت لميتيا أيضاً بصورة من الخطاب الذى بعثت إليك به ! فهل ذهبت إلى التعريشة يا ميتيا ؟

فكشر ميتيا عن أسنانه وخرج يرمق منافسه فى موعد الغرام بعين الغضب والبغضاء !

عبد الحميد محمدى